

الترجمة النوعية وأثرها في تعزيز الرصيد العلمي للغة العربية

Qualitative translation and its impact on enhancing the scientific balance of the Arabic language

أ/د: عبدالقادر حمراني*

جامعة الشلف (الجزائر)

a.hamrani@univ-chlef.dz

تاريخ الإرسال: 2025/01/05. تاريخ القبول: 2025/03/02. تاريخ النشر: 2025-05-27

الملخص: تعدّ ترجمة العلوم والمعارف ترجمة نوعية قائمة على الانتقاء لما هو أنجع في بابه، وأنفع في مردوده، أمرا حتميا يسمح بضخّ دماء جديدة في أوصال لغتنا القومية، والعمل على تحيينها وعصرنتها لتواكب مستجدات العصر. ومما لا شكّ فيه أنّ هذا الزّافد سيسهم بشكل فعال في حيوية اللغة العربية وعصرنتها. ولكي تؤثّر هذه العملية أكلها لا بدّ أن تكون موجّهة بعناية خاصّة، ومدروسة بطريقة علمية يتجلّى على إثرها الغثّ من السمين. فما كلّ ما في المعارف الأجنبية صالحا لأن يؤخذ. وعلى هذا الأساس فإنّ التحدّيات التي تواجهها في هذا المجال كامنّة في درجة تفتننا لآثار الرصيد العلمي المترجم ووعينا الحقيقي بآثاره وتداعياته. ومن ثمّ قدرتنا على انتقاء ما هو أنجع في بابه والإعراض عمّا سواه. وهو أمر يقتضي وجود هيئات علمية ترصد حركة الترجمة، وتوجّه عملها توجيهها علميا مدروسا بعناية تضبط وتُربط فيه الوسائل الإجرائية بالمآلات والمقاصد الفكرية بناء على أنّ العبرة مرهونة بطبيعة الزّاد المترجم وفعاليته، وليس بكمّ وحجمه الذي قد يكون إثم أكبر من نفعه. في هذا الإطار تسعى هذه الورقة البحثية إلى رسم معالم الترجمة النّافعة. وتمثّل سبيل النهوض بما لخدمة اللغة العربية خدمة نوعية في إطار فرق بحث علمية متخصصة تعصّنا من الوقوع في متاهات ما لا جدوى منه.

الكلمات المفتاحية: الترجمة النوعية، تعزيز الرصيد العلمي، الانتقاء، حيوية اللغة العربية. الفرق العلمية المتخصصة اقتصاد المعرفة، المنجزات العلمية.

Abstract:

Translating sciences and knowledge in a qualitative manner based on selecting what is most effective in its field and most beneficial in its outcome is an inevitable matter that allows for pumping new blood into the veins of the Arabic language and updating it in line with the requirements of the age. There is no doubt that this tributary will contribute effectively to the vitality and modernization of the Arabic language. In order for this process to bear fruit, it must be directed with special care and studied in a scientific manner that will reveal the good from the bad. Not everything in foreign knowledge is suitable to be taken. On this basis, the challenges we face in this field lie in the extent of our awareness of the effects and repercussions of the translated provision. Hence, our ability to select what is most effective in its category

and ignore the rest. This requires the existence of scientific bodies that monitor the translation movement and direct its work with carefully studied scientific direction that controls and links the means to the ends because what matters is the quality and not the quantity, the sin of which is greater than its benefit. In this context, this research paper seeks to outline the features of useful translation. It represents ways to advance it to serve the Arabic language in a qualitative manner within the framework of specialized scientific research teams that protect us from falling into the labyrinths of what is useless.

Keywords: Qualitative translation, Vitality of the Arabic language. Specialized scientific teams, knowledge economy, scientific achievements.

تمهيد:

يتفق أهل الذكر والفكر على أنّ ترقية أية لغة يتوقف أساساً على نوعية البحوث العلمية الجادة وأصناف المعارف الفكرية التي تحتويها سواء أكانت أصيلة فيها صادرة بلسانها أو مترجمة إليها. وهو ما يؤهلها للانفتاح على العالم من حولها، ومواكبة الركب العلمي الذي تضاعفت منجزاته، وتعمّقت مخرجاته. على هذا الأساس فقد بات لزاماً علينا النظر في طبيعة منجزاتنا العلمية بالعربية وما تُرجم إليها لمعرفة موقعنا الحقيقي في خضمّ هذا الزخم الحضاري المتسارع الخطى، ودرجة ترتيبنا في سُلّمه. و السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق كامن في أنواع الرّهانات التي يجب أن يضطلع بها الفعل الترجمي باللغة العربية في ظلّ اقتصاد المعرفة الذي يطبعه التسارع، و يغذّيه التفوّق النوعي الذي يدين بالغاية فيكّرس لها كلّ وسيلة ممكنة. وإذا كانت اللّغة من أجلّ الوسائل الناقلة لهذا الزّاد المعرفي فإنّها تتحتّم علينا العناية الشّديدة بها، والعمل على ترقّيتها في شتى الميادين العلمية والعملية ونفخ روح العصر بعلومه في أوصالها. وتحيين ذلك باستمرار تحيينا علمياً هادفاً ومدرّساً.

قيمة اللغة وضرورة العناية بها:

لا يخفى على ذي بصيرة الدّور الفعّال الذي تضطلع به اللّغة في حياة الشعوب والأمم لارتباطها بمستخدميها أشدّ الارتباط. فهي تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وتحديد خصوصياته. وهي تعدّ بحقّ أصدق مؤرّخ لحياة الأمم، بل إنّها مرآة حياتها في كلّ أطوارها. وهي حلقة وصل بين الفكر والواقع. إنّها تسعى إلى تحويل الواقع إلى مفاهيم تربط بين العلامة وما تدلّ عليه بغية إقامة تصوّر ذهني للمرجع الذي يمثّله الواقع الخارجي. ولما كان الأمر كذلك فإنّ كلّ مستعمل لهذه اللغة يكون خاضعاً بالضرورة لسلطتها من حيث هي أداة وظيفية لا غنى عنها، علاوة على أنّها حاملة للمخزون المعرفي الذي يتحكّم في تصوّرات الفرد ومعارفه لذلك قيل: كلّ قوم يتكلّمون كما يفكّرون، ويفكّرون كما يتكلّمون. إنّ هذه الظاهرة الإنسانية العجيبة (اللّغة) التي هي في جوهرها منظومة متكاملة من

العلامات الدالة منطوقة كانت أو مكتوبة تحمل في طياتها مقومات الأمة بكل أبعادها المختلفة. " واللغة بحكم أنها لا يمكن تصوّر وجودها إلا وهي مرتبطة بالمجتمع الذي يستخدمها أشد الارتباط ، يكون من خصائصها ووظائفها بجانب كونها تسهم في صنع الفكر وتوجيهه وتحديد خصوصياته من مجتمع لآخر، لأنها تعدّ أصدق مؤرخ لحياة هذا المجتمع وحياة ثقافته وحضارته، وذاكرته التي تحتزن عنه كلّ ما يتعلّق بعاداته وتقاليده وسلوكه.... وباختصار كلّ ما يريد المرء أن يعرف عن هذا المجتمع من تفاصيل قد لا نجد أحيانا من الأدلة على وجودها في وثائق التاريخ، ولكننا نجدها في تضاعيف كلمة من كلمات القاموس اللغوي.¹

لقد بات واضحا لكلّ ذي بصيرة ما تمثله اللغة في حياة الشعوب والأمم وما تقدّمه من خدمات نوعية للتطوّر الحاصل لدى الدّول المتصدّرة للركب الحضاري في عصر اقتصاد المعرفة وقيمة المعلومة العلمية، وهو ما يدعو الأمم إلى الاحتفاء بلغاتها القومية ، وإقامة معاهد متخصصة لتطوير لغاتها وربطها بأحدث المستجدات التكنولوجية ذات العلاقة بالجانب اللغوي. والذي بتنا نخشاه أنّ أزمتنا اللغوية ستزداد حدّة أمام هذا التسارع التكنولوجي المذهل الذي زاد من اتّساع الفجوة اللغوية التي تفصل بيننا وبين العالم المتقدّم. لا ينبغي أن نعتقد بأنّ اللغة تمثّل أداة اتّصال وكفى. إنّها أبعد من هذا وأعمق. إنّها عنوان السيادة ورمز الهوية وروح الأمة. لأجل ذلك يحرص المستعمر على طمس معالمها في الفكر الجماعي، وإخماد جذوتها في النفوس. إنّ اللغة بأهلها والترجمة تمدها بما يضمن حيويتها وبيعث روح الازدهار العلمي في أوصالها ليعمّ شتّى مناحي الحياة.

لم يعد خافيا على ذي حِجر بأنّ اللغة قد أصبحت شديدة الصلة بالجوانب المادية في حياتنا الرّاهنة. وقد جسّدت نوعا من أنواع الاستقطاب والهيمنة في مجال الاتصال والرقمنة. لقد ضربت بسهم وافر في تحقيق التقدم الاقتصادي والهيمنة على الشعوب المستضعفة التي غدت مرهونة بتبعيتها لغيرها لأنّ التبعية في زماننا هذا هي تبعية فكرية بالدرجة الأولى وفي مقدمتها القضية اللغوية، لقد أصبحت اللغة اليوم عملة وطنية تعكس رأس مال البلد في سوق المعرفة. وإذا كان الأمر على هذه الدرجة من الخطورة وجب علينا إعداد العدة الكاملة للنهوض باللغة العربية والحدّ من الاستلاب الفكري الذي يرهن سيادتنا ويصيرنا إمعة لغيرنا.

لقد غدت الأمم الحية تحتفي بلغاتها القومية وتسعى جاهدة لبعث روح العصر فيها وشحنها بالطاقة اللازمة للاستجابة لمتطلبات العصر ، ومواكبة أحداثه المتسارعة إدراكا منها بأنّ البقاء لن يكون إلا للأصلح في عصر العولمة القائم على الاقتصاد المعرفي الذي لا يقيم وزنا لمن فاته ركب المعرفة المتسارع في خطاه. و كلّ من تخلّف عن ركبته كبّلت أغلال التبعية وكان أمره إلى زوال. ولتدرك هذا الوضع القائم حريّ بنا أن نفكّر جدّيا في أمثل السبل المفضية

إلى فكّ العزلة والتهميش الذي يعترينا ، وقد يفتك بنا إن لم نبادر إلى استدراك ما فاتنا. وقد أصبحنا أكثر من أيّ وقت مضى نستشعر جسامه الخطب وبعد الهوة الفاصلة بيننا وبين العالم المتقدّم بسبب اتساع الفجوة المعرفية بمفهومها العلمي الشامل. ولتدرك هذا الأمر حريّ بنا أن نفكّر جدّياً في أنجع السبل المفضية إلى رأب ذلك الصدع ، والأخذ بكلّ أسباب النجاح المفضية إلى التفاعل الإيجابي مع متطلبات العصر.

على هذا الأساس فقد بات لزاماً علينا الاحتفاء بلغتنا والسعي جاهدين لبعث روح العصر فيها إدراكاً منّا أنّ عصر العولمة والاقتصاد المعرفي لا مكانة فيه للضعفاء. ينبغي ألاّ يغيب عن أذهاننا أنّ البحث العلمي في اللغة العربيّة مردوده ضئيل للغاية إذا ما قيس بما يصدر باللغات الأجنبية المتطورة التي ضعف التواصل الفعال بيننا وبينها. وقد ترتب عن ذلك انقطاع اللغة العربيّة عن مصادر المعرفة العلمية ذات الأسهم العالية في سوق المعرفة. يحدث هذا عندما يتوانى المثقف العربي عن التحكم في زمام اللغات الأجنبية التي تمثّل مصدر العلم والمعرفة. فمما هو معلوم بداهة أنّ الباحث الحقيقي لا ينبغي أن يقتصر لسانه على لغة واحدة فيكون محجوباً عمّا يحدث من معارف وابتكارات في مجال البحث العلمي الذي يشهده العالم من حولنا. وأمام هذا العجز المتنامي عن مواكبة مستجدات العلوم والمعارف بلسانها الأصلي ليس لدينا من خيار غير تفعيل دور الترجمة لنقل تلك المعارف إلى اللغة العربيّة كي تكون ساحة للاطلاع عليها، واستثمارها استثماراً يعود على العربيّة وأهلها بالتّفعّل.

لم يعد مفهوم التنمية حكراً على الجانب الاقتصادي فحسب بل تعدّى مجاله واتّسع ليشمل مختلف الجوانب المعرفية المادية والمعنوية على حدّ سواء، حيث غدا للبعد اللساني الذي يحفظ مقومات الأمة الحظّ الأوفر من العناية والرعاية بفعل ما يحققه من مكاسب تعود على الأمة بالنفع والتحسين من رياح العولمة العاتية. لهذه الدواعي تحرص الأمم الواعية برسالتها الحضارية على العناية البالغة بالاقتصاد المعرفي الذي غدا رقماً صعباً في زماننا هذا يفرض علينا ضرورة التّكفّل بالاقتصاد العلمي الهادف الذي يطوي لنا المسافة الزمنية لتحقيق التنمية الشاملة التي تغذي اللغة الوطنية بمستجدات علوم العصر ومعارفه ضمن تصوّر علمي هادف ومدرّوس بعناية يسمح بانتقاء العلوم والمعارف الرّاهنة الرّائدة في مجالها وترجمتها إلى العربيّة إثراء لها وتعزيزاً لرصيدنا العلمي وزادها المعرفي. ولن يتأتّى ذلك إلّا بإعداد العدة المناسبة لهذا المشروع الهادف. وفي مقدمة هذه الأولويات إعداد المردود البشري الكفيل بحمل هذا العبء والتمكين لهذه الرسالة السامية ميدانيا لنقل العلوم والمعارف. فالترجم الحقّ لا بدّ أن يكون واسع الثّقافة، واعياً بخصوصية اللغة التي ينقل منها والتي ينقل إليها، حتّى لا تكون ترجمته ترجمة حرفية مخلّة بالقصد. نقول هذا لأنّنا ندرك أنّ واقع الترجمة في العالم العربي يشير إلى أنّ أغلب المترجمين لا يجيدون اللغة العربيّة كمثّل إجادتهم للغة الأجنبية التي يأخذون عنها، لذلك تكون ترجمتهم غير متناسقة بالقدر المطلوب مع روح اللغة العربيّة.

إنَّ خصوصية اللغة العربية وما تتمتع به من غنى في رصيدها اللغوي وما تنطوي عليه من مؤهلات الديمومة ومواكبة مستجدات العصر تواجه تحديات كبيرة وبخاصة في العلوم النوعية ذات الصلة بالمجالات التقنية والمعلوماتية فلا يزال الرصيد الكمي والنوعي المكتوب باللغة العربية على الشبكة العنكبوتية ضعيفا إذا ما قورن بما تنجزه الدول المتطورة وما توفره لشعوبها لاعتقادها الراسخ بأنَّ التقدم الحقيقي يقتضي إنتاج العرفة وجودة استثمارها في شتى مناحي الحياة ضمن لغة فعّالة تتماهى مع مختلف متطلبات العصر. ولولا مرونة اللغة العربية وسعة ثرائها ما كانت لتصمد أمام رياح الزمن التي أبادت لغات عديدة. لقد تصدت العربية ولقرون طويلة لكلّ السهام التي وجّهت لها، والحملات الاستعمارية المسعورة التي شكّكت في مصداقيتها ورغبت في النيل منها.

إذا كان هذا هو حال اللغة العربية في قدرتها على الثبات في وجه تقلبات الزمن وكسر شوكة الذين يتربصون بها الدوائر، فهي جديرة بالعناية والاهتمام وذلك بتحيين علومها باستمرار، والعمل على توفير كلّ أسباب القوة التي تكفل لها مساندة مستجدات البحث العلمي.

إنَّ خدمة اللغة العربية لا يجب أن يقتصر على التباهي بما أنجزه الأسلاف إبان عصور ازدهار الحضارة العربية. فلا بدّ من الخروج من هذه الدائرة المغلقة التي لا

فالذي لا بدّ منها كما منفيًا لرجب هذه اللغة في معتزكا لأفرا من لغات العالم

الآخذة بزم ما المبادرة المتصدرة لطليعة الركبا الحضاريا الذي لا مكانة فيه للضعفاء. ولا

الأمريّة تطلب تخطيطا علميا محكما ومدرسا بعناية وتبصر كبير ينتأزرفيه جهود المخلصين

حكما ومحكومين، يدفع كل من موقعها إلى التمكن من هذه اللغة في مختلف مناحي الحياة. والتشديد على تفعيل

آليات البحث العلمي الجاد والهادف للقائم على رؤية مستقبلية متينة الأركان، محكمة البنيان. تطعم هذه اللغة ترجمة بكلّ ما جدّ في حقول العلم والمعرفة ليجد فيها الباحث العربي غايته ومناه.

راهن الترجمة إلى اللغة العربية في الوطن العربي:

لا جدال في أنّ الإنتاج العلمي للأمة العربية لا يكاد يذكر بالقياس إلى ما تنتجه الدول المتطورة التي أصبحت أكثر إيمانا باقتصاد المعرفة الذي يجعلها متبوعة لا تابعة. إنّ هذا التسارع المذهل لما تنتجه الدول المتقدمة في الحقل العلمي الخالص يشكّل عقبة كؤود بالنسبة لأمتنا العربية التي لم تستطع أن تحاصر هذا التطور المهول واستيعاب منتجاته العلمية في ظلّ غياب استراتيجية مدروسة بعناية وإحكام من شأنها أن توجّه الفعل الترجمي توجيهها تتلافى فيه العشوائية في ترجمة العلوم والمعارف ونقل الخبرات. و مما يؤسف له أننا نرى مقابل ذلك الإنتاج العلمي المكثف

الذي تشهده الدّول المتقدّمة واقعا عربيا في مستواه الجامعي يعيش ركودا معرفيا، وتبعية لغوية تختلف باختلاف الاستعمار الذي رهن حاضرها ومستقبلها في لغته على حساب لغة الدّين والوطن. وقد ولّد هذا الواقع الذي يغذّيه الاستيلاء الحضاري طبقة من المثقّفين الذين لا يدينون للغتهم بالولاء. ولا يضمّرون لها الوفاء. وقد ساعد هذا التصرف على انزواء اللغة العربية في عقر دارها، وانكفائها على نفسها، حيث صارت غريبة في وطنها محاصرة في ربوعها رغم ما تمتلكه من مقوّمات البقاء والثراء للتفاعل مع متطلبات العصر ومستجداته.

إنّ نقل العلوم والمعارف إلى اللغة العربية لا يزال بطيئا في سيره محتشما في فعله بسبب ما يشهده التعليم الجامعي من تنكّر للذّات والتشكيك في قدرة اللغة العربية على الوفاء بمتطلبات العلوم الحديثة. وقد ألجأها هذا الظّن المزري بالعربية إلى الارتقاء في أحضان اللغة الأجنبية واعتمادها وسيلة للتعليم والبحث بدعوى قصور العربية وعجزها عن الاضطلاع بتلك المهام. وهذا اتّهام خطير ومجحف من أناس أداروا ظهورهم للغتهم ورموها بالعقم زورا وبهتانا. وقد غفلوا عن عجزهم وقصورهم في امتلاك لغتهم والانتفاع بعبقريتها. إنّ مثل هذه التصرفات و الاعتقادات التي تبخس العربية حقّها وتسيء إليها عن قصد أو عن غير قصد تعكس بجلاء حجم المأساة التي يحياها البحث العلمي بصفة عامّة والفعل الترجمي التّوعي بصفة خاصة البلدان العربية. وما ينجم عن ذلك من آثار تكون سببا في خذلان العربية والتنكر لها. وقد يكون ذلك عونا على الوقوع في مخططات الأعداء الرامية إلى التغريبو الإيمان بعقيدة التبعية المطلقة للغرب الذي ما فتئ يعمل جاهدا على رهن مستقبلنا في لغته ومناهجه. وتكبلنا بخططه المسمومة التي غرست فينا الانهزامية، وقضت على روح المبادرة التي تنمي فينا الإيمان بثوابتنا وتدفعنا إلى التحرر من رقة التبعية.

فعل جميل أن تصدر المراسيم، وتسنّ القوانين للتهوض بعملية الترجمة لكن إذا لم يسند الأمر في تجسيد فحوى هذه القوانين إلى أهله كانت النتيجة مضاعفة الأثر في سلبياتها لأننا نسيء إلى الفكرة من حيث لا ندري. ونكون من الذين يظنون أنّهم يحسنون صنعا والواقع أنّهم على النقيض من ذلك تماما. فعلى الرّغم من وجود الهياكل والمجامع العلمية إلّا أنّها لم تقو على التمكين للغة العربية كي تكون لسان أمة موحّدة ووسيلة نقل للمعارف والعلوم، وأداة لتوطين التفانة. ومما يزيد الطين بلّة في هذا المجال ضعف التنسيق بين هذه الهياكل. نقول هذا ونحن نعلم أنّ توحيد الجهود بين هذه الهيئات العلمية يوفّر كثيرا من الجهد. ويسدّد الخطى. ويطوي المسافة نحو تحقيق الهدف المنشود من الترجمة الإيجابية التي تكون سببا فعّالا في حيوية اللّغة العربية وعصرنتها. وتزويدها بما هو نافع في بابها. فيكون كالضّروري الذي لا غنى عنه، يجدّد أنفاسها، ويحيّن رصيدها المعرفي. ومما لا شكّ فيه أنّ التقدّم التكنولوجي الحالي

يسرّ كثيرا من إشكالات البحث والتواصل والتقريب بين وجهات النظر فضلا عن الاطلاع المباشر على مستجدّات الحضارة العالمية في أحدث صوورها.

إنّ المشاريع العلمية الهادفة ينبغي أن تحدّد فيها الآليات والغايات ويكون الربط بينهما محكما للغاية بعيدا عن العشوائية والارتجال. هذا الذي ينبغي أن تخضع له الترجمة الهادفة التي تستهدف المعارف ذات المردود الفعّال الذي يكون سهمه مرتفعا في سوق اقتصاد المعرفة. ولا سبيل إلى تحقيق الغاية من هذا المسعى إلاّ إذا أُسند أمره إلى لجان علمية متخصصة تحدّد ما تجب ترجمته. وما يتعيّن الإعراض عنه، وعدم هدر الوقت في سبيله. إنّ عدم وضوح الرؤية في هذا المجال حاصل بسبب غياب هيئة علمية قومية أو وطنية دائمة تتكفّل بتحديد المسار والسهر الدائم على الانتقاء والتوجيه بإخلاص تام، ورغبة صادقة، لا تزعزعها رياح التغريب التي لا تزال تحتوش الساحة العلمية من كلّ وجهة. كيف لا وهي التي سعت سعيا حثيثا لإفشال قطار التعريب الذي انطلق بعزم وحزم بغية التمكين للغة العربية في كلّ مناحي الحياة العلمية والعملية إلاّ أنّ المتربصين الدوائر بهذا المشروع السيادي عطّلوا مسيرته وكبحوا جماحه فلم يرفّ له لحن على وتر.

الترجمة النوعية وسبل النهوض بها:

إنّ النهوض باللّغة العربية لاستيعاب مبتكرات العصر ومسايرة التطوّر العلمي صار حتمية تاريخية وهي من أولوية الأولويات التي يجب أن نعدّها لها العدة كاملة وليس ذلك بالأمر الهين ولا هو بالمستحيل إذا توقّرت الإرادة الصادقة وأُسند الأمر لأهله من الذين يتقنون فقه الأولويات. ولنا في أسلافنا الأسوة الحسنة لما عملوا على تشجيع حركة الترجمة في العصر العباسي وكان عملهم انتقائيا يتماشى وحاجات الأُمّة، فلم يأخذوا من اليونانية مثلا إلاّ ما تمسّ إليه الحاجة. لقد ضربوا صفحا عن الأدب اليوناني واهتمّوا بنقل العلوم الطبية والرياضية لما في ذلك من نفع للأُمّة وهو ما يقابل علوم التكنولوجيا في زماننا هذا. لقد عرفوا كيف يستفيدون من علوم غيرهم وذلك بالتركيز على ما يمكن أن يقدم قيمة علمية مضافة، حيث تمّ الاقتصار على المعرفة العلمية الصّرفة والتطبيقية التي تبني العقل. وتسهم في تنويره. وهو الذي يجب أن نسعى جاهدين إلى ترجمته باستمرار تماشيا مع كلّ جديد نافع. وهو منهج سليم قويم ينأى بنفسه عن دسائس العولمة وسمومها.

إنّ الترجمة الواعية الهادفة كفيلة بتجديد دماء اللّغة العربية والرفع من مستوى حيويتها في شتى الميادين تجاوبا مع متطلبات العصر، وتفاعلا مع أحداثه. ولهذا الضرب من الترجمة النوعية دور جدّ مهمّ في إصابة الهدف وطيّ

المسافة الموصلة إليه. وتعزيز جسور التواصل المثمر. ونقل المعارف الهادفة. وستظلّ الترجمة السبيل الوحيد الذي تمتلكه اللغة لإنتاج المعرفة، وهذا ما قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية التي أولت عناية بالغة للترجمة التي كانت جسرا بين العربية والحضارات الأعجمية وقد تكلم ذلك بنهضة تاريخية سادت لقرون عدّة. واتّكأ عليها الغرب في بناء حضارتهم الحالية. تشير المصادر التاريخية إلى أنّ ازدهار الترجمة في الحضارة العربية الإسلامية كانت نتيجة اهتمام الدّولة بحركة الترجمة. فقد أنشأ الخليفة المأمون بيت الحكمة وخصّ المترجمين بجزيل العطاء الذي شجّعهم على نقل العلوم التي كانت حجر الزّاوية للمشروع الحضاري الذي سرعان ما قطفت ثماره. و لتحقيق الاستفادة من هذا الفعل التّوعوي وجب علينا إنشاء مؤسسة علمية للترجمة ترعاها الدّولة . وتوجّهها توجيهها مدروسا بعناية ودراية. ويكون لجانb التكوين في هذا التخصص مقاييس ترفد بعضها بعضا، يغذيها التكامل المعرفي ويطبعها الانسجام على المستوى الأفقي وكذا العمودي. كلّ ذلك في إطار ربط الوسائل بالغايات والمقاصد بالإجراءات. ولعلّ من أوكد الواجبات في هذا الشأن الحرص كلّ الحرص على براعة المترجم في اللغة العربية بالدرجة الأولى كونها الوعاء الناقل للمعرفة والحاضن لها. ولا نجافي الحقيقة إذا قلنا إنّ طلبة قسم الترجمة بضاعتهم مزجاة في هذا الجانب. ولو تحدّثنا عن درايتهم بأساليب البلاغة والبيان التي هي روح اللغة العربية لقلنا عنهم: إنّهم أضيع من الأيتام في مأدبة اللّثام. وإذا كان هذا هو واقع الحال فأنتى لهؤلاء الغرباء عن لغتهم أن يترجموا إليها أو يفدوا منها، إذ كيف يستقيم الظّلّ والعود أعوج. لقد بات من الضروري الاهتمام بهذا الجانب المعرفي وإعداد العدّة اللازمة له لأنّ ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب.

لقد بعث هاجس العولمة في الدّات العربية المعاصرة شعورا بالإحباط أدّى إلى الاستسلام والركون إلى العجز عن مجاراة الغرب في علومه وأبحاثه. واكتفى المثقف العربي بقبول حالة التلقي والتبعية الفكرية. وربّما حمل تحاذله هذا اللّغة العربية متّهما إياها بالقصور والعجز عن استيعاب إفرازات البحث العلمي المتسارعة في سيلها الدّافق. وقد نجم عن ذلك انعدام الثقة بالنفس والاستكانة إلى الغير. تلك هي علّة العلل التي رهنّت طموحنا في التقدم والازدهار وصيرّتنا أمة فاقدة الثقة بالنفس، مغلوبة على أمرها، عاجزة عن الانتصار للغتها، وصدّ سهام المتربصين بلسانها. لقد فتر فينا الإحساس بروح المسؤولية. ودبّ في أوصالنا الوهن فأصبحنا خاضعين خائعين لإملاءات الغرب ومخططاتهم المشبوهة الرامية إلى إذابة مقومات العروبة بل وطمس معالمها فشيئا فشيئا إلى أن تندثر. ولا يدرك خطورة هذا المسعى إلّا من كان نبيها مخلصا لعروبه غيورا على لغته التي تسري فيها بصمات هويته. ولعلّ ما كان يشعر به مالك حدّاد

من غربة لغوية منعتة من التواصل مع قومه بلغته الوطنية في كتاباته التي بلسان المستعمر إذ لم يكن له من خيار بديل الأمر الذي جعله يرّد عبارته الخالدة: (اللغة الفرنسية هي منفاي).

ما كان لهذا الكاتب المخلص لعربيته المستنكف عن الدّوبان في لسان غيره أن يرّد هذه الجملة البليغة في مبنها ومعناها لولا يقينه الراسخ بمكانة اللغة العربية منه. إنّ مثل هذا التشبث بالعربية و الإخلاص لها هو ما يجب أن يتحلّى به كلّ مثقّف غيور على دينه ووطنه، ويسعى جاهدا لتمثّله في أبحاثه لرفع راية اللغة العربية والعناية بها. ولو حرصنا على التمكين للعربية في النفوس والعمل على بثّ الإيمان بها و بقدرتها على العطاء والإبداع، لكان يومها أفضل من أمسها. إنّ الإنجاز الحضاري الذي تحقّقه اللغة العربية في بعض المجالات بين الحين والآخر، إنّما هو بمقدار الإيمان بهذه اللغة، والثقة بها وما تحمله من طاقات خلاقة يجب أن نقدّرها حقّ قدرها فنمكّن لها خير تمكين في حياتنا العلمية والعملية.

لا يخفى على ذي بصيرة بُعد الفجوة الرقمية بيننا وبين العالم الغربي واتّساع مداها في ظلّ الاكتشافات العلمية المتسارعة مقابل التواني الذي توسم له عملية البحث العلمي عندنا والفتور الذي تعرفه عملية الترجمة في وطننا العربي إذ لم يعد بمقدورنا مسايرة ذلك التطور الهائل الذي تحقّقه البحوث العلمية الجادة. في وقت تنكبنا عن الصراط السويّ الذي يكفل لنا خدمة هذه اللغة بما هو أجدى وأنفع في إمدادها بترجمة نوعية ذات ثقل معرفي نوعي يدفع عنا الاستكانة إلى الأجنبي ويصرف عنا تبعات التخلف. ليس لدينا من خيار لرأب هذا الصدع غير التفكير الجدي في التخطيط المنهجي المبني على أسس علمية لإحداث قفزة نوعية تمكّنا من ضخّ دماء جديدة في كيان هذه اللغة وأوصالها تشمل كافة التخصصات التي تلبي حاجات الدّارسين وتربطهم بمستجدات البحث العلمي الناجع وفي هذا السياق ينبغي أن نعي جيّدا بأنّ إصلاح اللغة لن يتحقّق على أكمل وجه إلّا بعصرنتها في حمولتها المعرفية وما تشحن به من علوم نافعة تمنحها مواكبة متطلبات العصر. وتحصّنها من تيار العولمة الجارف الذي يستهدف الخصوصية البشرية.

إنّ مستقبلنا متنام هو نبض قضية تمكيننا العربية من استيعاب العلوم والمعارف بتعريبها وإدماج تقنياتها في

مختلف مجالات الحياة التي تحكمها اللغة العربية قادرة على التّجاول بمعكافة المنجزات الحضارية التي يشهدها العالم . منحولنا .
ولنيتحقّق ذلك كما المتخلص النوايا لتفعيل دورها في كافة مجالات الحياة مندونا استثناء
للمجامع التي تزايد فيها الشّأن كونها حاملة للمعرفة ومنتجة للعلم بمدلولها الإيجابي .

لا شكّ أنّ قلّة البحوث العلمية الرائدة في مجالها ومنها الترجمة النوعية الهادفة يعود أساسا إلى جملة من العوامل الكابحة في ميدانها، وفي مقدّمتها تدنيّ المستوى العلمي بالجامعة والقصور الواضح في التكوين والتأطير نظرا لقلّة الإطارات العلمية ذات المصدقية الخالصة التي انتزعت مكانها بجدارة واستحقاق، ومكنتّ تمكيننا سويا رغبة في العلم والإخلاص له. ومما يؤسف له أنّ واقعنا العلمي الراهن لا يبعث على الارتياح مطلقا وسط تدنيّ المستوى العلمي وضعف الأمانة العلمية ومصدقيتها التي ألقت بظلالها على واقع التحصيل العلمي. ولتخطي عتبات هذا المشهد المخزي ينبغي أن تتضافر الجهود للإخلاص للعلم ومحاربة كلّ دخيل عليه ومحسوب عليه. هذا إلى جانب منهج علمي صارم للحصول على الشهادات العليا كون هذه الفئة هي المعوّل عليها في الترجمة لمختلف الحقول العلمية. فإذا أسند الأمر لأهله كانت النتيجة إيجابية حتما، والعكس صحيح. ولعلّ هذا هو الذي يكون سببا في تخليصنا من عقدة التبعية للغات الغربية التي استسلم لها العديد ممن فترت فيهم روح القومية العربية فاستكانوا لغيرهم فأعماهم وأصمّهم التغريب الذي أنساهم عروبته. ولما كان هذا هو واقع الحال تأكّد علينا واجب التحسيس بضرورة التفطن إلى تبعات الاستلاب اللساني الذي يطس البصائر والأبصار ويقضي على الخصوصية الحضارية والقومية وما ينجم عن ذلك نتائج سلبية تستشري آثارها وتكون سببا في اغتيال العقل العربي ولسانه. وتبرز معالم هذا التأثير السلبي بجلاء في مجال الآداب والعلوم الإنسانية. وهذا ما تبّه إليه المحذّرون من الارتقاء في أحضان الثقافة الغربية من غير تمحيص ولا رويّة. فهناك العديد من المثقفين العرب اليوم يقفون وقفة خشوع وتقديس لعلوم الغرب ونظرياته الوافدة، وكأنّ ذلك الإنتاج على وهنه وسليبيته أحيانا يصميهم ويعميهم عن حقيقته ومردوديته التي يكون إثمها أكبر من نفعها وهو ما ينبغي الوقوف منه وقفة واع متبصّركي لا تقع في الشبهات فضلا عن المحظورات. وعليه يمكن القول إنّ أحسن استثمار للمعرفة ينطلق أساسا من إصلاح منظومة التعليم والتكوين والبحث العلمي في الجامعات التي تسعى جهدها إلى دعم وتشجيع اكتساب المعرفة ونشرها في ظلّ نظام تعليمي حكيم تؤطّره وتوجّهه شروط إنتاج المعرفة ونقلها وحسن استثمارها. إلّا أنّه لا يمكن للبحث العلمي الجادّ المترجم إلى العربية أن يستوي على سوقه، ولا أن يحقّق الأهداف المنشودة منه إلّا إذا ضبطت وربطت فيه الوسائل بالغايات ربطا محكما، يعكس تعبيرا صادقا عن إرادة قوية لدفع عجلة التنمية الشاملة، وتغيير الواقع نحو البديل الأفضل. ولن يتمّ ذلك إلّا عبر حوار علمي هادف وسياسة حكيمة تبدأ من النظر الجادّ في المنجزات العلمية والقراءة الواعية لها. و تقويمها بما هي أهل له، من غير محاباة أو موارد، بناء على أنّ البقاء للأصلح، وأنّ الرّيد سيذهب جفاء، وأما ينفع النّاس فيمكث في الأرض. فعند تمييز الغثّ من السمين تتّضح الرؤية التي تزول معها الشّبهات. ولا ننخدع بالكّم الذي لا حظّ له في سوق النّوعية

الرائجة. لقد أثبت التطورات الحضارية للأمم أنّ ازدهار البحوث العلمية الهادفة كان دوما عاملا فعّالا في إحداث النهضة الشاملة في أيّ بلد.

إنّ الانفتاح على علوم غيرنا ينبغي أن يكون مدروسا بطريقة علمية تكفل له حسن الانتقاء لما هو نافع في بابه ومحقق لقيمة مضافة ذات جودة عالية تمكننا من التفاعل مع متطلبات العصر، وتنفي عنا كلّ غثّ لا طائل من ورائه بغية تحقيق ترجمة نوعية ذات مردودية علمية عالية. إنّ واقع الفعل الترجمي الراهن في وطن العروبة يشير إلى أنّ مسلكه لم يعد مجديا كونه قد حاد النهج الذي يجب اقتفاؤه والوجهة التي يجب أن يؤمّها كي يأخذ منها ما نحن في أمسّ الحاجة إليه فعلا. لقد ضلّت الترجمة الراهنة طريقها وتنكّبت عن الصراط السويّ، وغلبت عليها الارتجالية والفوضى، وهذا ما أفضى بها إلى التّيه وعدم التمييز بين الضارّ والنافع مما هو في حضارة الغرب.

أمام هذا الخطب الجسيم ليس لدينا من سبيل نسلكه غير القيام على أمشاط أرجلنا لرفع راية التحدّي بغية الظفر بالمطلوب وتحقيق كلّ مرغوب يعود على هذه اللغة بالحياة وتغذيتها بما هو نافع في بابه يمكنها من مواكبة التطورات الراهنة. ومن ثمّ تفعيل البحث العلمي بالعربية ترجمة وإنتاجا لما فيه من تطويع لأساليب العربية وعصرنتها، مع الانفتاح الإيجابي المدروس بعناية وحكمة من غير ذوبان في حضارة الغير. ولن يتأتّى الظفر بهذه الغاية إلّا باعتماد مشروع نهضوي للفعل الترجمي يأخذ بكلّ الأسباب التي تحقّق الثراء والنماء للغة العربية.

إنّ التجديد الحضاري ينطلق من اللغة التي هي ضرورة الحياة كونها وعاء للفكر وأداة لتجسيده وإظهاره. فاللغة شأنها شأن العملة الوطنية تنمو ويرتفع مسهمها بتطور اقتصادها ونخبوتها وتقهر بركود اقتصادها. وفي هذا السياق ينبغي أن نعي جيّدا بأنّ الترجمة ليست مجرّد نقل لركام من المعارف من لغة إلى أخرى من غير تمحيص وتدقيق قد يثقل كاهل اللغة. إنّ الترجمة اختصاص وتقنية، بل هي علم وفنّ ودراية. وأنّ خدمته النوعية للغة العربية تحتم علينا مزيدا من العناية والرعاية بأسباب التمكين له، والتبصر بسبل النهوض به.

في ختام هذه الورقة نوّكد مجدّدا على أنّ سبل النهوض بالترجمة النوعية الهادفة تتمثّل فيما يلي:

- إنّ تحيين اللغة العربية وعصرنتها لا يكون إلّا بالتفتّح لعلم مستجدّات العلوم والتكنولوجيا وترجمتها إلى العربية لما في ذلك من رفعة للمستوى الثقافي للمواطن العربي وانفتاحه على ما يجرى من حوله.

- ضرورة تبني خطة علمية مدروسة بعناية من قبل لجان متخصصة تحدّد الأولويات وترسم الأهداف التي من خلالها تُحدّد الكتب والمواضيع الواجب ترجمتها بالنظر إلى قيمتها العلمية ومردودها الاقتصادي. وذلك من شأنه أن يوحد الجهود. وينفي التكرار الذي يترتب عنه هدر الوقت وتلاشي الجهود. ولعلّ من أبرز النقاط التي يجب

أخذها بعين الاعتبار في هذا الشأن هي ضرورة توحيد المصطلح لأنّ في توحيد هتوحيد للغة العالم العربي وجهود الباحثين، وتفادي التكرار وهدر الوقت.

- إنّ الاستعمال الفعلي للغة العربية في شتى مناحي الحياة يجعلها فاشية على الألسنة عندها تغدو الاستفادة من منجزات الترجمة إلى العربية أمرا واقعا مستثمرا ميدانيا يعود على حيوية اللغة بالنفع. يضاف إلى هذا ضرورة بثّ الاعتقاد اليقيني بين أبناء هذه اللغة بما يرسّخ فكرة ثرائها وقدرتها على مسايرة مستجدات العصر واحتواء علومه. نقول هذا سعيا منا لإحداث التعبئة الشاملة وكسر شوكة أولئك الذين تنكروا للغتهم ونبذوها ظهريا حين ساروا في ركب أعدائها الذين حاولوا النيل منها منذ أمد طويل وقد استشرى شرهم في الوقت الراهن في ظلّ صراع الحضارات.

- إنشاء وكالة عربية تحرص على تنسيق الجهود، وانتقاء العمل المرغوب في ترجمته. وإيجاد مجالات علمية متخصصة تهتمّ بنشر الأعمال المترجمة إلى العربية وتثمينها.

- إقامة ملتقيات فكرية يتمّ فيها تقويم ومناقشة ما تمت ترجمته لإظهار مدى فاعليته وتوزيع ذلك عبر الجامعات كي يتمّ الاطلاع عليها ونقدها وبذلك تتسع قاعدة المهتمين بهذا الجانب العلمي ومن ثمّ إشراك أكبر قدر ممكن من الباحثين.

- تفعيل البعثات العلمية بين الجامعات مع ضبطها بشروط عمل فعلية وذات مصداقية تخضع للمراقبة الصارمة التي لا تؤمن إلاّ بالإنتاج النوعي الفعّال في بابها.

- تشجيع المترجمين من ذوي الهمم العالية الذين يحققون مردودية علمية عالية من شأنها أن تفيد اللغة وأهلها. وتوفير الإمكانيات المادية والمعنوية لهم.

- إنشاء فرق بحث متكامل فيها التخصصات لتذليل العقبات التي تعترض سبيل المترجم في غير مجال تخصصه. ففي العمل الجماعي تكثيف للجهود، وتذليل لكلّ عقبة كؤود.

- إيجاد بنك معلوماتي في مجال الترجمة متعدّد التخصصات لتذليل العقبات التي تعترض سبيل المترجم ضالّته. والعمل على تحيينه وإثرائه باستمرار. وإنشاء مواقع إلكترونية تمدّ الباحثين بكلّ ما من شأنه أن يرفع وتيرة الترجمة إلى العربية كمّا ونوعا.

في الختام لابدّ من التنبيه إلى أنّ مطالاستعمار قد تحوّلنا لاستيلاء المباشرة على الأرض والمقدّرات، إلى

الاستيلاء على العقول تفكيراً، واللغة تعبيراً. لهذا فإنّنا لابدّ من الوعي بحجم المسألة وخطورتها لإعداد العدد اللازم

بالاعتماد على تخطيط مدروس وبمعايير فائقة، يؤطّر تفكير جاد وثقة في النفس وتوقظ الهمم وتشجّد العزائم. خاصة.

وأنّ واقع الأمة العربية مثخن بالجراح، وهو أمر لا يبعث على الارتياح. لذا باتلزاما علينا إعادة النظر في

السياسات اللغوية في جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوية ولنعدّ العدة اللازمة لاسترجاع الدور الفكري والعلمي الرائد الذي قامت به العربية في تآريخها الزاهر ولعدة قرون، وهذا ما نؤدعيا إليها العربية في هذا العصر من أجل نهضة علمية وفكرية، تعيد للأمة العربية مكانتها بين الأمم، وتحررها من رقة التبعية الفكرية والاستلاب الحضاري في خضمّ التقدّم العلمي الكاسح والتراكم المعرفي المهلول الذي لم يكن لنا فيه من نصيب غير الإعجاب بالذهول.

الهوامش:

- عبد العالي الودغيري، في الثقافة والهوية، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ص: 11¹